حول الأهمية الاثرية لمكتشفات ابلا - تل مرديخ

د . عدنان البني

المديرية العامة للاثار والمتاحف ـ دمشق

ان الاهمية الكيفية والكمية للرقم المسمارية المكتشفة في القصر الملكي في ابلا ـ تل مرديخ ، العائدة للالف الثالث قبل الميلاد ، واساءة تأويل محتوى هذه الرقم ، ومن ثم اساءة استعمال ذلك المحتوى ، قد اثارت انتباه العالم ، حتى الصحافة اليومية في الشرق والغرب ، الى جانب وحيد من مكتشفات ابلا هو تلك الرقم المسمارية . فأصبحت هذه الرقم بالنسبة للبعض كالعقل الاليكتروني فيها جواب لكل سؤال . وبالنسبة البعض الاخر اصبحت رؤيا من رؤى التوراة . وادلى الكثيرون بدلوهم بين الدلاء ووجدوا الحلول على كل الاصعدة ، وجلهم أهمل الجانب الاثري البحت لمكتشفات ابلا ، ولم يتصد له الا بعثة التنقيب نفسها وقلة من المختصين العرب والاجانب .

وخلال السنوات العشر التي انقضت بين استهلال التنقيب الاثري في تل مرديخ واكتشاف محفوظات ابلا ، وخاصة في السنوات الخمس الاخيرة ، تحققت مكتشفات اثرية صرفة وذات اهمية علمية باهرة ولكنها مرت غالبا دون ان تلفت انتباه احد تقريبا ، حتى في الاوساط الاثرية .

ولسنا نوي في هذاالبحثاو ندعي اصلاح هذه الحال ، بل كل ما نبتغيه انىنلقي بعض الضوء على الناحية الاثرية من مكتشفاتابلا ، منوهين بهذه المناسبة بالمثابرة التي تتحلى بها بعثة التنقيب الايطالية ورغبتها في الاسراع بتزويد العالم والجمهور الواسع بثمرات جهودها(١) .

(*) بحث القي بجامعة روما ، في ختام الندوة العالمية التي عقدت حول مكتشفات تل مرديخ ـ ابلا ، في باريس ١٩٨٠ .

ان تل مرديخ الذي يبلـغ طـوله ١١٠٠م ومسـاحته ٥٦ هكتارا ليس تلا من اضخم التلال الاثرية في سورية فحسب ، بل هو من احسنها موقعا ، لكونه في منتصف الطريق بين الفرات والبحر الابيض المتوسط . وهو خير مكان يشكل استجابة لكل بحث اثري يستهدف خاصة ماضي القطر العربي السوري في تلك العصور الموغلة في القدم والتي مازلنا لا نعرف عنها الا القليل .

وفي هذه الركامات السعيدة التي تكون تل مرديخ يتتبع الباحث خلال الف عام (من حوالي ٢٥٠٠ الى حوالي ١٦٠٠ قبل الميلاد) (٢) دور بلاد الشام وعطائها في مطلع عهد نشأة المدن ومن ثم في عهد السلالات الامورية الاولى . واذا كان بعض هذا الدور معروفا جزئيافانالملاحظ ان هناك انتقاصا من أهميته .

ان المكتشفات الاثرية في تل مرديخ قد زودتنا حتى قبل العثور على المحفوظات الملكية ، ومن ثم بعد العثور عليها ، بمعلومات وافرة عن فن عمران المدن في سورية خلال الالف الثالث قبلالميلاد وكذلك عن عمارة القصور والمعابد في الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد . كما ان تلك المكتشفات الاثرية كانت بالغة الفائدة في معرفة بعض الفنون والحرف السورية ، كالنسيج والصباغة والتنزيل والنقش والنحت والفخار، خلال تلك القرون المعتمة . كما انها القت ، بشكل غير مباشر ، الضوء على العلاقات الاقتصادية ، وعلى طرقالمبادلاتوالتجارة بين سورية والاقطار المجاورة ، بما في ذلك مصر .

ولم يكن موقع تل مرديخ جديرا بالثقة لو لم يقيض له تنقيب ستراتيغرافي دقيق ودراسة منهجية . ان نتيجة هذهالمنهجية هي الوصول الى تقويم راسخ علميا موثق اثريا لسويات التل . فاكتشاف اجزاء من اناء مصري في القصر الملكي العائد للالف الثالث يحمل كتابة تعود للفرعون المصري بيبي الاول، هو دعم للتأريخ الذي كان قد قدمه الاستاذ ماتييه للسلالة الملكية في ابـلا ، ودافع عنه في مناسبات عدة . اذ ان العلماء يجمعون على ان بيبي الاول حكم فترة تمتد من عهد سرجون الاكادي الى عهد حفيده نارمسين . وبالنسبة لبعض الاحداث اصبحنا بفضل المكتشفات الاثرية لتل مرديخ ، نمتلك تواريخ مطلقة تسهل لنا مهمات التأريخ الصعبة في مواقع اخرى . اذ اننا نرى فيهذا الموقع « تطابقا بين تاريخ ابلا الذي نعرفه من المصادر القديمة وتأريخ طبقات تلمرديخالتي ظهرت في التنقيب »(٣) . وهذا الامر لم يسهل انشاء تقويم فحسب ، بل سهلميلاد مصطلح اثري خاص بسورية ، مستقل عن

المصطلح الرافدي أو المصري ، اللذين كانا يطبقان عليه(٤). اذ ان الافاق الاثرية ، اي السويات ، موسومة باحداث تاريخية :

فسوية تل مرديخ المسماة(IIB_1) التي تعود للطور (آ) من عصر البرونز القديم الرابع ، والمؤرخة من حوالي ٢٤٠٠ الى حوالي ٢٣٠٠ – ٢٢٢٥ قبل الميلاد ، تعادل عهد سلالة ابلا الملكية .

وسوية تل مرديخ المسماة(IIB_2) التي تعود للطور (ب) من عصر البرونز القديم الرابع ، المؤرخة من حوالي ٢٢٢٥ الى حوالي ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، يقع في نهايتها قيام السلالة الامورية في ابلا .

وهاتان السويتان تقابلان كأفق اثري ، مبدئيا ، السوية (I) والسوية (j) في سهل العمق ، واجمالا السوية (j) في حماة .

ثم ان سوية تل مرديخ المسماة (IIIA) ، التي تعود للطور الاول من عصر البرونز الوسيط ، والمؤرخة من حوالي ٢٠٠٠ الى حوالي ١٨٠٠ قبل الميلاد ، تعادل عهد السلالة الامورية في ابلا ، وكذلك السوية (H) في حماة .

واخيرا ان سوية تل مرديخ المسماة (IIIB) تنتهي حوالي ١٦٥٠ او ١٦٠٠ ، وتقابل قيام الحثيين بالهجوم على ابلا .

وهذه التواريخ اكدتها ، فضلا عن ذلك ، المكتشفات الحديثة في تل مرديخ التي تضم هدايا من عهد الفرعون خفرع من السلالة الرابعة ، والفرعون بيبي الاول من السلالة السادسة كما اسلفنا(٥) ، وأخيرا الفرعون حوتت رع الذي حكم في فترة ما بين ١٧٧٠ – ١٧٦٠ ق.م .

ومهما كان موقفنا من مسائل التقويم في الشرق فلا بد من ان نعطي لهذه المكتشفات المصرية في ابلا قيمتها التاريخية البالغة ، نظرا لما تقدمه من ايضاحات من اجل تقويم ابلا ، ومن اجل الجدل المزمن حول التقويم الرافدي القصير والطويل(٦) .

وبعد هذه الايضاحات الخاصة بالتقويم ، فان مكتشفات تل مرديخ – ابلا قد اثارت لدى العلماء اتجاهين ، فبعضهم يشد ابلا نحو الرافدين وينزع احيانا حتى الى احتواء سورية الشمالية القديمة كلها في المجموعة الرافدية(٧) ، والبعض الاخر

يبالغ في الالحاح على الاصالة السورية منذ اقدم العصور المعروفة ومنهم الاستاذ ماتييه نفسه. لكن المرء بنساءل : اين كانت الحدود الجغرافية الخاصة بسورية في عصور البرونز (الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد)؟ . من الواضح ان ذلك ينطبق على المنطقة المعروفة ببلاد الشام لدى العرب جميعا ، أي الشريط الـذي يمتد غربي الرافدين من الامانوس الى سيناء ، والذي يضم الالاخ ويمحاد وأوغاريت وابلا وحماة وقطنا (تل المشرفة بجوار حمص) ودمشق والمواقع الهامة من فلسطين . واننـا لنجد في هذه المواقع تجانسا كبيرا يتحكم به الوضع الجغرافي ، والدور التجاري ، والمبادلات الاقتصادية . على ان هذه العوامل نفسها تكون هذا التجانس برفده بتيارات ثقافية تعدل تلك الخصائص التي تميز بها هذا الشطر الشامي من الهلال الخصيب(٨). وفي اعتقادنا ان بلاد الشام تأصلت خصائصها المميزة تلك مع انسياح الاموريين ــ الكنعانيين من الجزيرة العربية وتأسيس ممالكهم اعتبارا من مطالع الالف الثاني قبل الميــلاد .

وعلى اية حال ان ما تقدم يبدو لنا صحيحا في ضوء ما لدينا من معلومات حتى الان . على ان الحقيقة التاريخية هي محصلة صعبة جدا ، فالحدود السياسية القديمة والحديثة والسلالات ، واحيانا اللغات المكتوبة ، تشوشنا في موضوع الاصل والانتماء.



في هذا السياق العام ، تبدو لنا ابلا اهم مركز مدني سوري في الالف الثالث قبل الميلاد ، مدينة تجارية كبرى تعقد مع العالم المجاور صلات اقتصادية وسياسيـة وأحيانا حربية . ولابد ان نفوذها كان كبيرا ، ولكن اراضيها لم تشكل ابدا امبراطورية كبرى(٩) .

وان الميل للمبالغة المفرطة في امتداد تلك الامبراطورية بالاستناد الى تأويـل خاطىء للنصوص (١٠) هو في خطورة التقليل من دور ابلا (١١) .



وعلى الضفة اليسرى من الفرات الاوسط ، أعطتنا ، مؤخرا ، مواقع كثيرة اثارا من عصر البرونز القديم (٢٩٠٠ ــ ٢٠٠٠ ق.م) ، ومنها تل شمس الدين الغربي، تل العبد ، تل ممباقة ، تل الجفلة (قرب تل طاوى) وتل حلاوة الجنوبي ..الخ. تلك المواقع التي شملتها حملة انقاذ اثار الفرات قبل انتهاء السد وتشكل بحيرة الاسد(١٢)

والامر نفسه في موقع « ابو ضنة » قرب حلب حيث اظهر لنا سبر طبقي واسع سورا ضخما من عصر البرونز القديم ايضا . وذلك كله يضاف لما كنا حصلنا عليه في اسبار اوغاريت وحفريات سهل العمق وحفريات حماة . ولكن ، في هذه الافاق الاثرية كلها، لا يوجد ــ اثريا ــ مايوازي تل مرديخ الذي يبقى ، وربما لوقت طويل ، خير مصدر لنا عن الثقافة المادية والفكرية في سورية الشمالية خلال النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد . ومع ذلك فان ثمة مسألة تتطلب الحل وهي عدم وجود سابقات معروفة حتى الان تسهل معرفة اصول العمارة وفن التخطيط المدني في ابلا . ويتساءل المرء اين نشأ وتطور ما يسمى لدى الاستاذ ماتييه بالمفهوم السوري لعمارة القصر في ابلا ؟(١٣) وهل نأمل ان نجد النموذج الاقدم لهذا القصر في اكروبول المدينة نفسه ؟، أم يجب ان نفتش عنه فيمكان آخر ؟(١٤).



وتبقى اخيرا نقاط اخرى نأمل ان نجد جوابا لها في معاول المنقبين بتل مرديخ ، وعلى راس تلك النقاط معرفة ابلا بشكل افضل خلال عصر البرونز في اطواره الاول والثاني والثالث ، والفترة ما بين احتلال المدينة من قبل نارمسين ، وتأسيس السلطة الامورية في ابلا . ثم اننا نتمنى ان نصل الى صورة اكثر واقعية لابلا التي احتلها تحوتمس الثالث (١٥). وليس هذا من قبل الامل فحسب ، لان تل مرديخ ــ ابلا عودتنا على المفاجات الاثرية الطيبة . فما كاد العالم يستفيق من مفاجأة المحفوظات الملكية حتى بهرته روعة التحف الامورية(٦) في قبور الامراء ، في قصر الالف الثاني .

وختاما ، فان ابلا التي يرى فيها البعض امبراطورية منقوشة على الطين (١٧) ، هي بالنسبة للعالم الاثري نبع اثري لاينضب معينه .



الحواشي :

(١) هذا الامر معترف به دوليا . وقد نوه به العالم المنصف د.بيغس في مقاله الشهير عن ابـلا ورقمها راجع :

R. BIGGS, The Ebla Tablets, Biblical Archaeologist, 43/2, Spring 1980, P. 85.

(٢) وثمة عهود اخرى في الطبقات العليا من عصر الحديد ، وحتى من العصور الرومانية والبيزنطيةوالعربية الاسلامية ، اذ نجد كتابات اموية تذكارية منقوشة على جدران البوابة الجنوبية الغربية .

(٣) P. MATTHIAE, Le palais royal et les archives d'état d'Ebla proto-syrienne, Akkadica 2, Mars/Avril 1977, p.3.

(٤) على ان هذا المصطلح الخاص بسورية يحتاج لبعض لتعديل وقد نعود له في مناسبة اخرى .

(٥) G. SCANDONE - MATTIHAE, Vasi inscritti di Chefren e Pepi I nel Palazzo Reale (G) di Ebla, « Studi Eblaïti», I. 3/4, p.33-43.

(٦) في رأي ليبنسكي ان مكتشفات تل مرديخ تلائم التقويم القريب . راجع مقاله في المجلة التالية :
« Akkadica », 14, (1979), p. 46-47.

(٧) راجع على سبيل المثال :
G. BUCCELLATI and M. KELLY BUCCELLATI, « Syro-Mesopotamien Studies.», (May 1977) p. 1 - 2.

(٨) ومن ذلك ان الاثر الاكادي واضح في اعمال النحت والمنقوشات الابلية (العمائم « والبروكات » والوجوه وتنزيل العيون ، وكذلك مواضيع الاختام الاسطوانية) .

(٩) راجع :
A. ARCHI, Ebla according to tests.

وهو عنوان محاضرة القاها في حلب عام ١٩٧٨

(١٠) A. ARCHI, Notes on Eblaite Geography, « Studi Eblaiti», II/1, 1980
H. KLENGEL, the Archives of Ebla and Syrian History, Problems and Effects, colloquium on Ebla, Roma, May, 1980.

(١٠) مثال ذلك ما ذهب اليه بيتناتو في مؤلفه التالي :
G. PETTINATO, Ebla, Un impero incisa nell argilla, Milano 1979, p. 111.

(١١) مثل ذلك المؤلف التالي الذي يجعل من ابلا دولة مدنية صغيرة فحسب :
CH. BARMANT und M. WEITZMANN, Ebla, Neu entdeckte Zivilisation in alten Orient, Frankfurt, 1979, p. 136.

(١٢) راجع دليل معرض آثار الفرات (حلب ١٩٧٤) ، والحوليات الاثرية العربية السورية (العدد ٢٥) ومجلة AASOR الامريكية ـ عدد ٤٤ عام ١٩٧٧ ـ وأبحاث ندوة آثار الفرات الاوسط (ستراسبورغ ١٩٨٠) .

(١٣) P. MATTHIAE, « akkadica », 2, p. 9.

(١٤) يقول روبرت بريدوود منقب سهل العمق ليس لدينا دليل واحد من حفريات حماه وسهل العمق على وجود هندسة معمارية في سورية في طور حماه (I) والعمق (I,J) راجع مؤلفه :
Plain of Antioch, I'p. 533.

(١٥) حاليا تعتقد البعثة الايطالية انها كانت في ذلك الوقت حقلا من الاطلال مع بعض مساكن على الاكروبول راجع :
P. MATTHIAE, Akkadica, 2, 1977, p. 4.

(١٦) P.MATTHIAE, Two Princely tombs at tell Mardikh-Ebla, «Archaeology» vol. 33/2 (1980) p. 9s.

(١٧) اشارة الى كتاب بيتناتو ابلا امبراطورية منقوشة على الطين المذكور في الحاشية رقم ١ من هذا المقال.

